الميلودي شغموم

الهدهد

الهدهد ـ نفعنا الله وإياكم بفضائل الإنسان والحيوان ـ كثير الفوائد خاصة قلبه وريشه ومصرانه وعينه ومنقاره وذنبه ودمه ومخاليب رجليه ولسانه وجلده ودماغه... ماذا تبقى!؟ كل شيء فيه! وهكذا، وعلى سبيل المثال فقط، فإن عينه إذا علقها المرء الكثير النسيان ذكر، وأكل قلبه نافع جداً للحفظ والذكاء، وحمل منقاره يقي ضياع الأشياء ويمنح «القبول» لدى علية القوم، وجعل لسانه تحت لسان الإنسان تقضى به جميع الحوائج ولا تردّ، والذي يريد أن يغلبه ويظفر بما يريد عليه بحمل بعض ريش الهدهد، والذي يريد أن يطاع ينبغي أن يطعم «المطيع» دماغ الهدهد، والمكان الذي تريد تخريبه علّق به ريشه، والحمام والدجاج وغيرها من الحيوانات التي ترغب في حفظها من الافات بخر مكانها بمخه، ومصرانه مفيدة جداً ضد النزيف والذمل... الهدهد كله فوائد وقوى خفية لمن يعرف الاستفادة منها...

ربما لهذه الأسباب يفتننا الهدهد وتضطرب فينا خلايا كثيرة عندما نراه معلقاً في حانوت عطار أو معلقاً في فضاء أو مستريحاً في خربة. ثم إن الهدهد يأكل الدود!... الله على بلقيس لما كشفت عن ساقيها ظانة أن الزجاج ماء!... وصويحبات زليخة اللائي يقطعن أيديهن!؟ يا يوسف إن الجمال نقمة... اختبار... كما الملك يا سيدنا سليمان إثم، إن الهدهد أبو الأخبار ودليل سيدنا سليمان إلى الماء... والسبب في أن ترفع بلقيس عن ساقيها الثياب... فتنة بلقيس وامرأة العزيز!

قد نعود إلى يوسف وسيدنا سليمان!... كان الولد يهيم باحثاً عما يشغل به نفسه... حول السور، باستثناء السور الشرقي، توجد حفر كثيرة متفاوتة العمق والاتساع كانت تبدو لنا، في سن الخامسة، ككهوفه عظيمة مليئة بخلق عظيم من الإنس والجان... قد تعطي هذه الحفر الانطباع بأنها أطلال مدينة قديمة بنيت فوقها الركادة... وقد يكشف التاريخ ذات يوم عن بلقيس تامسنا... فبلاد برغواطة أطلال فوق أطلال!... أما هذه الحفر الخنادق فإنما نتجت عن استعمال التراب والحجر في بناء السور، وربما فكر القائد في أن تبقى بذلك الشكل لتكون وسائل دفاع طبيعية لتعزيز دور السور... وفي هذه الحفر من الأسرار الشيء الكثير... فيها تقع غرائب الأمور بين إناث وذكور... بين حيوانات وذكور... بين ذكور وذكور، بين الإنس والجان... والله أعلى وأعلم بمثل وغير هذه الأمور!...

كم كنت أخاف منه لأنه الوحيد الذي يعلم أني حفظت سورة النمل في هنيهة بسبب بلقيس وسورة يوسف بسبب امرأة العزيز... أيصبح المرء فاسقاً في الرابعة من العمر!؟... لقد صليت تلك الليلة عشرات الركعات لأني كنت أعلم أنه الوحيد الذي يعلم أني بعت الهدهد أكثر من عشر مرات... نفس الهدهد!... في طفولتنا أشياء معجزة... ملغزة... طافحة بالبهجة في نفس الوقت!

ذات يوم من أيام الصيف، والسراب قد لبس حقول الشاوية حتى وكأنها استعادت البحر، طردت من البيت بعد الغداء «اخرج تلعب!» فتوجهت نحو السور أبحث عن ظله ودراجاتي فإذا بي ألمح ثعباناً ساهداً تبرق ألوانه فوق السور يتدلى رأسه في اتجاه أرض المدخل التي تبعد عن أعلى السور بحوالي خمسة أمتار... كثيراً ما حلمت بمثل هذا الثعبان... بالعشرات... تعضني... ملأت قبضتي بحجر أملس صلب يشبه «التيمومة» وفتحتها في اتجاه الثعبان.. في أقل من رمشة عين سقط على الأرض محدثاً صوتاً وكأنه جمل يسقط من السور... كنت قد أصبته في رأسه!... انتظرت أن يهمد... وحين حاولت أن أتحرك في اتجاهه لم تسعفني قدماي... ولما ظهر أحد أترابي وجدني مسمراً في مكاني أتصبب عرقاً كأنه ماء «زمزم»... نظر في اتجاه عيني... وجد عود قصب... ظل يجس جسد الثعبان من كل الجهات... فلما تيقن أنه ميت جره من ذيله وذهب يبحث عن أصحابه ليحكي لهم كيف قتله!... أصبح الولد منذ ذلك اليوم قاهر الثعابين... ينظم عصابات للبحث عنها في غيرانها... أما أنا فقد استبدت بي الدهشة ولم تفهم أمي لماذا بتّ أهذي وأهب مذعوراً من مرقدي طوال بقية اليوم والليلة!... لم أجرؤ قط على القول بأني

قتلت الثعبان... أنا نفسي لم أصدق نفسي!... ظلت الأسوار والغيران مليئة بالثعابين!

لذلك يوم «أخطأت» الاتجاه نحو الكتاب وقصدت الحفر وحدي كنت خائفاً من الثعابين رغم أن الوقت ربيع... ربيع الشاوية ليس له مثيل... ربيع الصبا... تدخل حقلاً أو مرعى فلا ترى إلا السماء فوقك.. لا شيء حولك... تسمع فقط أصوات البهائم والناس والطيور... لغط وغناء... أين ذهب كل هذا الجمال!؟ النابتات التي تغطي قامة أطول الرجال!؟... يا لطول وخصب قمم وشعير ذلك الزمان!... بلعمان!... ما زلت أسمع صوت السمان: مط مرمط... مط.. مرمط... مط مرمط!... فكيف لا تضرب عن حفظ سورة لوط!؟... وألوان الهدهد ورشاقته سواء حط أو طار!؟... بلقيس... كل الهداهد تبحث عن بلقيس!...

لمحته حاطاً على ربوة زاهية وسط الحفر... هذا هدهد سيدنا سليمان... يحرك رأسه بخفة عجيبة... يتقدمه منقارة وتعلوه قبعته... الماء... الماء! لقد جف جسدي وتخشب... رميته بحصاة فسقط من علوه في حفرة يفدفد... لم أفكر في الثعابين إلا عندما أمسكته بين يدي الاثنتين... بقصديرة كنت حولتها إلى سكين فتحت الصدر فالتهمت القلب ثم الرأس، فالتهمت المخ ثم قطعت اللسان ورميته تحت لساني... هذه الأشياء ينبغي أن تستعمل طازجة وساخنة لكي يكون لها مفعول قوي وفوري! وهكذا تأكدت من أنه لن يغلبني أحد في حفظ القرآن والحكايات ولا في الشطارة والدهاء... تأكدت من حسن طالعي... سأكون من أهل «القبول»، حظوتي لدى النساء لن تضاهيها حظوة!...

بعد أن تيقنت من أن لا أحد يراقبني وضعت بقية الهدهد في قبة جلابتي واتجهت نحو البيت لأعرض خدماتي السحرية على والدتي...

في منتصف الطريق اعترضتني العجوز... قالت لي مهددة: ماذا في قبك؟ من أين هذا الدم!؟ قتلت أحداً!؟

هذه المرأة منذ قتل زوجها ثور وهي تعيش في الحفر وقد تماهت بالحفر الواقعية والخرافية حتى أصبحت مثلها!؟ امرأة شبه خرافية، بشرتها ذاتها وألوانها بشكل الحفر وألوانها.

- جرانة بورية ضربها حنش!

كيف تخاف إذن من الضفادع والثعابين!؟ ولِم ينبغي أن أخاف منها كبقية الأطفال!؟ أنا معي هدهد، في دمي قلبه ودماغه وتحته لساني...! لكنها فاجأتني:

- أعط الهدهد لأمك ولا تعطه لغيرها!

وهربت إلى البيت... كانت أمي تقلب خبزتين في الفران... مددت إليها يدي بالهدهد!

- آش هذا!؟

- هدهد!

- لاش!؟

- مزيان... ينفع في شلة حوايج! ومذكور في القرآن!

لم أفهم كيف أصبت بالغباء آنذاك إلى درجة أني لم أنتبه إلى العصا التي كانت تقلب بها الخبز وتذكي بها النار إلا عندما نزلت العصا على رأسي!

- بغيتي بوك تولي سحار من صغرك... ينعل... باللاتي... أنا غادية نسالي لك!

كانت أمي كأغلب النساء في ذلك الوقت متقلبة المزاج: مرة وديعة وحنون ومرة هائجة وعدوانية كأنها امرأتان مختلفتان بشكل تام. وحينما تكون في حالتها الأخيرة فإن علي أن أختفي لوقت طويل كي لا أؤدي مكان هذا «المذنب» الذي لا أعرفه!... لما حضرت أول «جذبة» وشاهدت النساء يضربن أنفسهن بالسياط على نغمات عيساوية اعتقدت أنه بداخلهن وأنهن يخرجنه بالضرب!... الحمدللّه على أن الوقت لم يكن ليلاً! عما قريب سينادي المؤذن إلى صلاة الظهر. حقول الشاوية مليئة بالغذاء! ثلاثة أرباع النباتات البرية تؤكل، تؤكل طازجة. وأنا معي مقلاعي وفخي. يكفي أن تقلب بيدك الأرض المبللة لتجد دودة تضعها في الفخ... نصبت الفخ بعناية. أخذت أبحث عن «تافغة». ملأت منها قبي. وجدت أرضاً يابسة غير بعيد من الفخ فجلست وبدأت أقشر «تافغة». أكلت حتى شبعت ثم استلقيت على ظهري وشرعت في تأمل السماء والاستماع إلى «الصمت» وحين فرغت تماماً من متاعب الصباح ومخاوفه تذكرت الفخ. وجدت به قبّرة لا تزال حية. ربطت القبرة بحزام سروالي إلى جانب الهدهد. بحثت عن دودة ونصبت الفخ من جديد. قبيل العصر كنت قد اصطدت ثلاث قبرات. لم تعد بي أية رغبة في أكل اللحم، بدأت أشتهي سمكاً!... ارتديت جلابتي وذهبت إلى العطار الذي يشتغل بقالاً وساحراً في نفس الوقت!

- تشري من عندي واحد الهدهد؟

تفحصني بخبث من رأسي إلى أسفل قدمي الحافيتين!

- أرى نشوف!

كشفت عن هدهدي وقبراتي!

- فين المخ... والقلب... واللسان!؟

تذكرت لسان الهدهد الذي قد أكون أكلته مع تافغة أو بصقته مع غضبي من أمي!

- هذا الشيء اللي اعطى اللّه... تشري!؟

تظاهر بالزهد!

- لا أولدي... وحيت بوك صاحبي غادي نعطيك فيه حلوة بالعود!

لم تكن تلك المرة الأولى التي أبيع فيها وأشتري بشكل يتطلب مساومة ذكية، لكن اقتراب الليل بدأ يدفعني إلى الزهد في الهدهد أو التخلص منه خوفاً من أمي!

- شوف.. أعطيني بواطة ديال السردين وخبزة واللّه يربحك!

كان واثقاً من أنه يستطيع أن يضحك علي... شعرت بالإهانة وأطلقت أسفل جلابيتي نحو قدمي وابتعدت عن باب الحانوت بلا وجهة وأنا أردد!

- لن يستغفلني أحد!

وجدتني، حين سمعت صوت امرأة يناديني، غير بعيد من العرسة!

- إت ولد حادة!

- إيه ألاله!

- اعرفتني؟

- رقية مرت المعطي!؟

- يرضي عليك أوليدي... راني شفتك عند هذاك السحار ولد لحرام... امشيت نشري سبرو لخوك إدريس....

- مالو مسكين!؟

- مريض أوليدي... كيموت... وكي شفتي عمك المعطي ما كاينش امشي لخزازرة... إوى كالوا لي خاصو راس اديال الهدهد ياكلو مع العسل الحر... لعسل عندي... والراس منين نجيبو!؟

حدست أنها تحتال علي!

- كاين الراس أمي رقية... اشحال تقدري تعطي فيه!؟

أرادت أن تستمر في الاحتيال!

- إوى أوليدي الغالب اللّه... ما عندي فلوس وعمك المعطي... أنا أعرف أنها تربي دجاجاً وأرانب وديكة رومية كثيرة!

- شوفي أمي رقية... كل شيء بثمنو في هذا الوقت... اعطيني دجاجة نعطيك راس الهدهد!

بدت وكأنها تبكي... من أين تأتي بكل هذه القدرة على تمثيل أدوار البؤس المطلق!؟ معروفة بذلك هي وزوجها... إدريس أيضاً نسخة من أمه!

- الدجاج أوليدي كامل كالتو الكافرة باللّه!...

- إوى وقنية و...!؟

- تسرقت... علاه ما في راسكمش!؟

- خلينا أمي رقية من لبهوته!... اشحال تعطي!؟

- واللّه العظيم أوليدي... إلا كذبت لهلا... بالحق عندي شي بيضات... نعطيك بيضة!؟

- بيضة!؟... تعطيني عشرة!

- ما عنديش أوليدي... عندي غير خمس بويضات!

- ما كاين باس... اعطيني غير دوك الخمسة!

- أو ما بزافش عليك!؟

- أمي رقية... راه غير على وجهك ووجه إدريس... واش أنا اعطاوه لي فابور!؟... تانا راني خلصتو!

- وأنا غادية نعطيك ثلاثة... خلي جوج لخوك إدريس راني ما عندي ما نوكلو!

- أري دوك الثلاثة!

- اعطيني الراس واتبعني للدار!

وكأنها أحست بأني أدركت أنها ما زالت تحاول الاحتيال عليّ. أضافت:

- شوف... وأنا راني غادية ندعي معاك... ونرسلك عند صاحبتي اتبيع ليها الكلب!

أمام مدخل الدار أخرجت قصديرتي وقطعت رأس إحدى القبرات. سلخت الرأس بسرعة. قالت رقية:

- أرى الراس!

قلت:

- أري البيض!

ولما أمسكت يسراها بما في يمناي ويسراي بما في يمينها صرخت:

- بيضة واحدة!؟

همست!

- اسكت... اطلق... عمك المعطي في الدار!

وكأنهما مثقفان على المكر جاء صوته مهدداً:

- أشكون أرقية!؟

صرخت!

- ناري اهرب!

فهربت بالرغم من أنني كنت أعرف أن الأمر مجرد حيلة. لم أكن خائفاً من المعطي. كنت خائفاً من أمي... وكنت حانقاً على أمي! لماذا تظن أن الزمن قد يضحك عليّ!؟ سأنتظر طويلاً قبل الإجابة عن هذا السؤال... لكني وأنا أتاجر في «الوهم»، وأنا أضحك على أولئك الذين يعتقدون أنهم يضحكون عليّ كنت كلما ربحت صفقة أقول في نفسي:

- أنظري جيداً!

وكنت بطبيعة الحال أخاطب آمي... وهذا الهدهد الذي ضربتني من أجله واحتقرتني لم أبع منه شيئاً! لقد زرعت في جسده، عندما بدأت العتمة، قلب قبرة ومخها ولسانها ثم وضعته على غصن شجرة وقلت له:

- أش!

لقد بعت أجزاء القبرات كلها على أساس أنها أجزاء هدهد: لقد حاولت أن استغفل أطفالاً ونساء كانوا بدورهم يستغفلونني لنيل شيء من الهدهد! سيتقدم بي العمر وأكتشف أن هذه خاصية بشرية! ربما الخاصية الحقيقية التي تميز الإنسان عن الحيوان! الاقتتال من أجل الوهم!

أما الهدهد فإني عندما كنت متوجهاً في الصباح الباكر إلى الكتّاب مررت بالشجرة أتفقده فلم أجده. لقد طار، بكل تأكيد!

غير أن يوم الهدهد لم يتوقف عند هذا الحد، بل إنه لم يبدأ كما حكيته! لقد نسيت البداية والفرخة والسخرة إلى الحانوت والدراهم وابن خالتي وحلم البارحة... أمس عدت إلى البيت بعد تسكع طويل ومتعب. عدت قبيل المغرب بقليل وبي رغبة واحدة! آكل أي شيء وأرتمي في أي مكان لأنام. كانت أمي تشعل النار بالفران وأخي الأكبر يلهو بالحصى غير بعيد منها (لقد تعودت على ألا أخطئ وقت طهي الخبز لأني كنت أحب الرغيف الساخن المرشوش بالحليب!) سألتني أمي سؤالاً لم أكن أتوقعه!؟

- ما شفتيش بوك!؟

خفت أن تبعثني للبحث عنه!

- امش لدار القايد... شفت شلة بنادم براني داخل لدار القايد... عندو الضيوف... ولحوالة بزاف يذبحوا!

كان معنى ذلك أن والدي سيعود بلحم كثير، خاصة السلابات! غير أني لم أنتبه إلى هذا الأمر ربما بسبب التعب! أنا عادة أكذب بشكل أذكى، أما هذه الكذبة...! أكلت رغيفي المرشوش بالحليب ونمت لأستيقظ مذعوراً بعد هنيهة على صراخ أمي وضرباتها!

- فق أبو نوارة... ألصكع... أطاير الموت...!

كل النعوت...

كان أخي الأكبر مني سنتين يرتعد ويبكي... ظننت أنه يحتضر! حين تعبت أمي من ضربي وشتمي أعطتني ريالين!

- طير جيب الزيت... إلا تعطلتي بوك نقتلك!

كان عليّ أن أعبر العرسة الكثيرة الأشباح والجن في العتمة لأصل إلى الحانوت الوحيد الذي يظل مفتوحاً حتى آخر وقت من الليل! حانوت ولد السي الجيلالي! كم صادفت من الجن تلك الليلة! الحمدالله! لقد كنت أحفظ نصف القرآن!... والجن تعرف أني لا أعتدي على أحد... إلا على من يظلمني ويكون السبّاق إلى الشر!

اشتريت الزيت وقفلت راجعاً... لمع البرق مرات عديدة: في كل مرة كنت أرى ريالاً على الأرض! لم أفهم في البداية لماذا لم يلمع البرق في طريق ذهابي إلى الحانوت، لماذا لم يلمع إلا في طريق العودة، ابن خالتي سيشرح لي ذلك.

- إنه اعتراف من الجن برجولتك وصدق طويتك ودليل أمان منه!

وحكى لي بتفصيل، كأنه كان معهم وطوال ساعات، عن الحفل البهيج الذي كان قد أقامه الجن تلك الليلة لتأكيد طاعته لسيدنا سليمان وأكد لي أن سيدنا سليمان كان حاضراً معهم طوال الليلة وهذا هو السر في كثرة حركتهم التي شاهدتها وأنا ذاهب لأشتري الزيت!...

وضعت زجاجة الزيت في متناول والدتي التي كانت منهمكة في غسل طجين صغير فأمرتني بأن أمسكه بالكتكوتة السوداء، وبأن أذبحها وبأن أريشها وبأن أغسلها وبأن أقطعها أطرافاً وبأن أتجنب كسر أي عظم من عظامها!...

لما اكتمل الطبيخ وضعته أمي أمام أخي الذي كان قد توقف عن البكاء والارتعاش... التهمه كاملاً في رمشة عين... أما أنا فقد أمرتني أمي بأن أجلس بعيداً عن الوجبة... لم أنل منها سوى الرائحة!... أتم أخي زردته فاستلقى في مكانه ونام فصاحت أمي في وجهي:

- نوض تنعس اللّه يعطيك السم!

تظاهرت بالنوم حتى انتهى والدي من صلاته وترتيله للقرآن فتسللت خارج البيت وذهبت عند ابن خالتي الذي يحفظ مئات الحكايات الغريبة ويعرف أسرار الإنس والجن. فلما انتهى من رواية وقائع الحفل الذي أقامه الجن لتأكيد بيعته لسيدنا سليمان عدت إلى البيت ممتلئاً بهجة وعلماً. فلم يطل انتظاري للنوم. وهناك، في مملكة سيدنا سليمان، رأيت سليمان يمسخ الهداهد واحداً واحداً ليحولها إلى كتاكيت... ملايين الهداهد أصبحت كتاكيت!

حكيت حلمي لابن خالتي ورويت له قصتي مع الهدهد والقبرات فقال لي:

- ما ضربت كان كتكوتة... أما القبرات فكانت هداهد... وإنما شبه لك... كذلك يحفظ اللّه من عباده من يشاء!

وأنا لم أشك قط في حكايات ابن خالتي ولا في حكمته... إلا عندما بدأت أؤلف حكاياتي بنفسي!